دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

العذراء في اللاهوت الكنسي
صوم العذراء القديسة مريم
وعيد صعود جسدها إلى السماء

الأب متى المسكين

كتاب: صوم العذراء القديسة مريم وعيد صعود جسدها إلى السماء
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٧٩
الطبعة الثانية: ١٩٨٧
الطبعة الثالثة: ٢٠٠٥
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـــ وادي النطرون
ص ب ٢٧٨٠ القاهرة.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٠٨٩ / ٢٠٠٥
رقم الإيداع الدولي: 977-240-241-6

المحتويات

صفحة

(١) العذراء في اللاهوت الكنسي ٥
(٢) صوم العذراء وعيدها ١٧
(٣) عيد صعود جسد السيدة العذراء مريم إلى السماء ٢٣

(١)

العذراء في اللاهوت الكنسي

✧✧✧

- **العذراء والبشرية: العبدة والأم:**

درجة العذراء أعلى من السموات في اللاهوت الكنسي:

[ارتفعتِ أكثر من السموات وأنتِ أكرم من الأرضيين وكل المخلوقات التي فيها لأنكِ صرتِ أُمّاً للخالق].

- **العذراء والأنبياء:**

درجة العذراء أعلى من الأنبياء في اللاهوت الكنسي:

أ ـــــ العذراء تتنبأ.

ب ـــــ سيرة العذراء الداخلية.

- **العذراء والملائكة:**

درجة العذراء أعلى من الشاروبيم والملائكة في اللاهوت الكنسي.

- **شفاعة العذراء في حدود المعونة والشفاء والتوبة:**

شفاعة العذراء مدخل للمقابلة مع المسيح.

١ – العذراء والبشرية
العبدة والأم

+ «هوذا أنا أَمَةُ الرب، ليكن لي كقولك» (لوقا ١: ٣٨).

هذا هو أول تعبير نطقت به العذراء وجاء ليسجل لنا أعماقاً مهيبة في شخصية العذراء.

ولكن للأسف فإنه بسبب تصوُّرنا لصغر سن العذراء وبساطتها كفتاة صغيرة، وبسبب عبورنا على هذا القول دون تعمق، فات علينا ما فيه من عمق.

العذراء هنا تتخذ موقفاً جاداً وحاسماً من نفسها ومن العالم ومن الله. فبعد أن اقتنعت العذراء ببشارة الملاك وأحست أنها بموجب هذا الإعلان السماوي قد اختيرت بالفعل لتحمل في أحشائها بدون زرع رجل، من الله مولوداً، فيكون الله أباه مباشرة ويُدعى بموجب ذلك «قدوساً»، وهي صفة من صفات الله الخاصة جداً والفائقة جداً، ثم يُدعى «ابن العلي» ويُدعى «الله معنا» (عمانوئيل)؛ أقول حينما اقتنعت العذراء بذلك وهبت نفسها لله كأَمَة، أي عبدة، بمفهوم التكريس الكلي جسداً ونفساً وروحاً.

العذراء بهذا التعهد ـــ الذي جاء بشبه قسم أو عهد أبدي ـــ تبتَّلت لله كل حياتها بعد أن تم فيها هذا السر. هذا عهد أخذته العذراء

على نفسها أن تبقى بالنسبة لنفسها عذراء، وبالنسبة للعالم شهادة طُهْر فائقة الوصف، وبالنسبة لله عبدة أي مملوكة تماماً وكليةً لله، تعيش لـــه، وله وحده، بقلبها الذي امتلكه الله بالروح القدس والذي لم يعد ينـــبض إلا لحساب كلمة الله القدوس المولود منها.

نحن لا يمكن أن نغفل الشعور والعواطف المتبادلة بين العذراء كـــأُم والقدوس المولود منها كابن. لقد أعطت العذراء كل حبـــها ولطفهـــا وودِّها للمسيح المولود منها كأُم له وقد بادلها المسيح نفس العواطـــف واللطف والود كابن، طائعاً لها كقول الإنجيل. صحيح إنها عبدة، ولكن العبدة لله صارت أُمًّا لابن الله. ولكن الأم بقيت بالرغم من كل ذلـــك عبدة في نذر الخضوع الكلي والطاعة. هذا مذهل![1]

العذراء بعد علمها تماماً بمقتضى البشارة أنها صارت أُم القدوس ابـــن الله، أقسمت أن تصير عبدة لله كل الحياة.

أين العذراء هنا من آدم وحواء اللذين رفضا كلمة الله وأكلا بالفعل وبإصرار وعلم سابق مما حرَّم الله، طمعاً في أن يصيرا بعد الأكل كـــالله نفسه!!

العذراء بهذا العهد «هوذا أنا أَمَةُ الرب، ليكن لي كقولك» رجعـــت بآدم وحواء إلى ما قبل السقوط. آدم وحواء رفضا كلمة الله الحية المحيية، فوقع عليهما حكم الموت، أما العذراء فقبلت كلمة الله كلمة الحيـــاة،

[1] هنا الكنيسة تلتقط هذين اللقبين في وضعهما المضاد وتنسج منهما نشيداً فينســـجم بـــالروح، يوحي للإنسان بعظم الفرح والرجاء اللذين أتت بهما العذراء للبشرية الواقعـــة تحـــت ذل العبوديـــة: «افرحي يا مريم العبدة والأم لأن الذي في حجركِ الملائكة تسبحه». العذراء هنا ارتفعت ومعها البشرية كلها من مجد الأمومة، فحوَّلت لنا العبودية إلى طريق ممهد لقبول كلمة الله في أحشائنا.

فحلَّ في أحشائها ورفع عنها لعنة الموت: «مباركةٌ أنتِ في النساء» (لو ١: ٢٨).

تصميم العذراء بالقول «هوذا أنا أمة الرب» بعد أن رفعها الله إلى مستوى الأمومة لابنه القدوس المولود منها، هو في الحقيقة تصميم على العودة إلى ما قبل السقوط، وجحد علني لخطيئة آدم وحواء.

العذراء هنا صورة ناجحة ونموذج مؤثر لإمكانية الإنسان الذي وهبه الروح القدس سُكنى كلمة الله، أن يعود بالاتضاع إلى الحياة الأبدية، إلى حالة ما قبل السقوط.

إن الوعد بدخول كلمة الله في أحشاء البتول بالإخلاء العجيب الذي مارسه في نفسه ليتم التجسد هو سر تواضع العذراء المذهل، ولا يزال إلى الأبد سر اتضاعنا الوحيد الذي يؤهلنا لشركة الاتحاد بالله.

بولس الرسول ينهج نفس منهج العذراء بسبب نواله ملء الروح القدس، لأنه بعد قبوله حرية أبناء الله، وبعد أن رحمه الله وأعلن له السر المكتوم منذ الدهور الذي لم يعلم به أحد إلا الرسل، وبعد أن ارتفع بفرط الإعلانات ليرى السماء الروحانية بكل أمجادها، وبعد أن رأى يسوع شخصياً وأخذ منه الحرية الكاملة: «ألست أنا حرًّا؟ أما رأيتُ يسوع المسيح؟» (١كو ٩: ١)؛ بعد كل هذا يعلن بإصرار أنه بولس «عبد يسوع المسيح». العبودية لله هنا هي المقابل المفرح المُعطَى من الإنسان لله، لأن الإنسان الذي يدخل في حرية مجد أولاد الله لا يستطيع إلا أن يقدم هذه الحرية مرة أخرى لله كذبيحة حب ليصير عبد المحبة الأبوية الفائقة الحنو.

العبودية هنا عبودية الحب لله، وهي ثمرة الحرية لأنه لا يستطيع أحد

أن يتعبد لله تعبداً حراً بملء الروح والقلب والفكر، إلا الذي تحرر من الفساد الذي للعالم وأهواء وكبرياء الذات بحلول كلمة الله المطهِّرة الفعَّالة إلى أعماق فكر وقلب الإنسان.

٢ – العذراء أعلى من الأنبياء

في اللاهوت الكنسي ترتفع العذراء في درجة قُرْبها من الله، وبالتالي قداستها وشفاعتها، أكثر من جميع الأنبياء لأن سر العذراء أعلى من موهبة النبوة.

فالأنبياء قبلوا الروح القدس في الذهن والفم لينطقوا بكلام الله إلى فترة زمنية. أما العذراء فقبلت الروح القدس ليتحد بكل كيانها حتى يستطيع كلمة الله أن يأخذ من لحمها ودمها جسداً له.

أما كلمة الله التي خرجت من فم الأنبياء فكانت وقتية للتأديب، وكانت قابلة للتعديل، كل كلمة تناسب جيلها، وأما كلمة الله الذي خرج من أحشاء العذراء فهو شخص ابن الله الأبدي الكلمة المحيي، والمتكلم فينا بالحب والحياة إلى نهاية الدهور.

العذراء هنا أعطتنا «كلمة الله»، ليس كما أعطانا الأنبياء، والصلة التي صارت، دامت بين العذراء وكلمة الله يسوع المسيح. فالأنبياء كانوا آنية حملت الكلمة الإلهية إلى حين، ثم فارقتهم، فرجعوا كما كانوا غرباء عن كلمة الحياة؛ أما العذراء فقد ارتبطت بـ «كلمة الله» كأُم بقدر ما ارتبط «كلمة الله» بالعذراء كابن لها. فالعذراء ما تزال إلى الأبد حاملة

صلة الأمومة لابن الله، بقدر ما أصبح وما دام ابن الله حاملاً للقب ابن الإنسان!

أ ـــــ العذراء نبية:

وإن البرهان على صحة عقيدة الكنيسة بأن العذراء أعلى من الأنبياء هو أن تكون العذراء أولاً نبية، وثانياً أن تأتي بنبوة أعلى مما أتى به الأنبياء، فهل هذا تم بالفعل؟

من جهة المنطق، لم يكن ممكناً أن تحمل العذراء «بالكلمة»، كلمة الله، وتبقى بدون نبوة، بل بمجرد أن سكن «الكلمة» كلمة الله الآب الناطقة في أحشاء البتول، امتلأت ببهجة الخلاص وفتحت فاها مسبِّحة باسم الله القدوس ونطقت بعظائم الله!! «فقالت مريم: تعظِّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي، لأنه نظر إلى اتضاع أَمَتِه. فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني، لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس» (لو ١: ٤٦-٤٩).

هذه تسبحة نبوية ذات استعلان نبوي فائق، تمتد تغطيتها الزمنية إلى كل الدهور. وإذا فحصنا هذه النبوة نجد أنها تحققت بالفعل وبكل تأكيد وأصالة من ألفي عام وحتى اليوم.

وفي الحقيقة، تُعتبر هذه الجملة: «فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني» من أخطر ما نطقت به العذراء. فلم يُسمع قط أن نبياً قال: «هوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني لأن القدير صنع بي عظائم»!!، بل على النقيض نسمع من إشعياء عظيم الأنبياء يقول: «ويل لي. إني هلكت، لأني إنسان نجس الشفتين!!» (إش ٦:٥)

فالعذراء بقولها العجيب هذا تكشف مرة واحدة عن حالة انتساب

وقُربَى لله فائقة على كل المستويات البشرية، فهي تعلن بكل جرأة واتضاع معاً أن الله القدير منحها حالة مجد دائم على الأرض وفي السماء بعد انتقالها.

صحيح أن أي إنسان يمكن أن يتمجد من قبل الله جزاء سلوك معين، ولكن أن يوهب الإنسان أن تمجده جميع الأجيال ـــــ أي كل البشرية في كل العصور ـــــ أي بصورة دائمة، لا كجزاء عن عمل صنعه أو سلوك أكمله بل عن استحقاق فائق من الله بسبب عظائم صنعها الله به، فهذا شيء لم يُسمع به في دائرة تاريخ الإنسان قط.

إذاً، فنحن أمام نبوة فائقة تلقي ضوءاً باهراً على شخصية العذراء وتضعها في مستوى أعلى من كل ما عداها من الأنبياء وكل بشر.

هنا الطوبى حالة فائقة على مستوى البشر تستمدها العذراء من الله عبر اتضاعها واستحقاقها لحمل «كلمة الله»، ولكن العجيب الذي يبهرنا هو أن تطويب الأجيال لها يبدو هنا كحالة ارتباط روحي بيننا وبينها، تقف فيه العذراء في السماء كوسيطة فرح وسعادة للبشرية. فتطويب العذراء هو بحد ذاته دخول سري في سعادة ومجد.

ب ـــــ تلميحات عن الحياة الداخلية للعذراء:

١ ـــــ العذراء كانت تعيش في جوع دائم إلى بر الله. هذا تكشفه العذراء نفسها عند قولها في تسبحتها النبوية: «أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لو ١:٥٣). العذراء هنا تتكلم عن نفسها وعن الخيرات الأبدية التي استحقت الدخول إليها جزاء جوعها الدائم السابق لبرِّ الله.

٢ ـــــ العذراء كانت تعيش بحال دائم من التقوى، وهذا أيضاً

يكشفه قولها: «ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتَّقونه». لقد شعرت العذراء بعظم الرحمة التي أسبغها الله عليها، فأدركت في الحال أن رحمة الله إنما كان يعوقها سابقاً عدم تقوى الأجيال السالفة.

ولكن إذ أكملت العذراء متطلبات التقوى، رأت وأدركت الرحمة وهي تنسكب عليها وعلى كل الأجيال من بعدها، فخرجت العذراء بهذا التقرير الحاسم، عن خبرة، أن رحمة الله إنما هي قرينة التقوى.

٣ ـــ العذراء ارتفعت باتضاعها لتجلس على كراسي الكرامة. وهذا أيضاً يكشفه قولها: «أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين». العذراء هنا تصف نفسها وهي ترتفع بيد العلي القدير لتجلس في اتضاعها على كراسي المجد عوض الأعزاء! هنا العذراء لا تتباهى بالكرامة التي حازت عليها ولكنها تعلن عن حقيقة مؤكدة تحسها في نفسها، ولا تتمالك إلا أن تعلن عنها كبشارة وهي مسوقة من الروح تتكلم عن أمور إنما تخص البشرية كلها.

إذن، ليس من فراغ تؤمن الكنيسة أن العذراء تجلس عن يمين ابنها: «قامت الملكة عن يمين الملك» (مز ٤٥:٩ قبطي). فالعذراء إنما تؤكد ذلك بنفسها، إنما في حياء واتضاع، حينما تقول عن نفسها: «أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين».

ومن هم الأعزاء الذين أنزلهم الله عن كراسيهم إلا كل الملوك السابقين؟ ومن هو المتضع الذي رفعه الله ليجلسه على الكراسي عوضاً عن هؤلاء الملوك إلا العذراء نفسها؟!

٣ ـ العذراء أعلى من الملائكة

القديس بولس الرسول يعرِّفنا بدرجة الملائكة أنها درجة خادمة: «... الملائكة جميعهم أرواح خادمة مرسَلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١:١٤)، ومن حيث طبيعتهم يقول أيضاً: «الصانع ملائكته رياحاً وخدامه لهيب نار» (عب ١:٧).

لقد كشف لنا الله في اختياره للعذراء لقبولها الحمل «بكلمة الله» وميلادها للكلمة ابن الله متجسداً من لحمها ودمها، عن سمو الطبيعة البشرية حينما تعود إليها طهارتها فتأخذ إمكانية شركتها بالطبيعة الإلهية. بهذا يتأكد لنا أن طهارة العذراء استطاعت أن تتجاوز عجز البشرية الذي انحدرت إليه بالخطيئة لتبلغ بطبيعة البشرية قامة أعلى من قامة الملائكة، حتى أنها تأهلت لقبول سُكنى كلمة الله في أحشائها.

فإن كانت الطبيعة البشرية قد تدانت إلى ما دون الطبيعة الملائكية بسبب الخطيئة والعصيان وقبول لعنة الموت، إلا أن العذراء بطهارتها واتضاعها وخضوعها الفائق لمشيئة الله قبلت وعداً من الله بميلاد ابن العلي، وبقبول هذا الوعد ارتفعت الطبيعة البشرية في العذراء إلى حالة من المجد تأهلت أن يتخذ منها ابن الله جسداً له. وهكذا تجاوزت العذراء في طبيعتها عجز البشرية بتدخل الروح القدس وقوة العلي، حتى بلغت ما هو أعلى من الملائكة! لأنه بينما كانت العذراء تحمل في بطنها ابن الله القدوس، وبينما كانت تتفرس في ضياء وجهه كل يوم، كان كل ملائكة الله ولا يزالون يخفون وجوههم من بهاء عظمته.

لذلك ليس بدون سبب يتجرأ التقليد الكنسي ويرفع كرامة العـــذراء فوق الملائكة وكل الرئاسات الملائكية حتى الشاروبيم.

فالملائكة بالرغم من كونهم أرواحاً نارية، إلا أنهم لم يبلغوا من اللياقة ما يؤهلهم لقبول طبيعة الله النارية، أما هذه الفتاة المباركة فقد احتوت في لحمها ودمها الأضعفَيْن طبيعة الله النارية التي ترتعب منها الملائكة وذلك دون ما حرج بسبب ما حازته من طهارة واتضاع عظيمَيْن.

٤ ـ شفاعة العذراء في حدود المعونة أو الشفاء أو التوبة

شفاعة العذراء مدخل للمقابلة مع المسيح:

حينما تشفع فينا العذراء من أجل معونة أو شفاء أو توبة، تُدخِلنا في مجال علاقتها بالمسيح.

فالشفاعة في الأرثوذكسية ترفعنا إلى مستوى الشفيع، فتُوجدنا في حضرة المسيح على أساس اختفاء الوسيط. أي أن الشفاعة هي وِصالٌ بالنعمة، العذراء تَهَبنا كل إمكانياتها الموهوبة لها لنتقدم بها إلى المسيح؛ فنتقدم نحن كعذراء، أي بروح ونعمة الطهارة والقداسة كهبة. هكذا كان يفعل القديس بولس الرسول بكل جهد «لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو ١١:٢).

الشفاعة الأرثوذكسية صحيحة:

١ ـــــ لأنها بالنهاية تلغي الفوارق بين الشفيع أي العذراء وبيننـــا، حينما نأخذ من العذراء جرأة طهارتها ودالة أمومتـــها وفـــرادة حبـــها للمسيح، وهذه كلها محسوبة أنها مواهب أُعطيت لها من أجلنا، وهـــي

بعظمة دالتها تستطيع أن تتنازل عنها لنا، كما يمنح العضو الأقــوى في الجسد قوته للعضو الأضعف.

٢ ـــــ والشفاعة بهذا الوضع ترفع كل الحواجز التي بيننا وبين المسيح فنتقدم إليه بلا عائق ولا حاجز من ضعفنا، لنأخذ من المسيح معونــة أو مطلباً أو شفاءً عزَّ علينا أو توبة تأخرت.

أعتقد أن الشفاعة بهذا الوضع هي وحدها الــتي يمكــن أن تســمى الشفاعة، فالعبد المتشفِّع يلزم أن يكون مستعداً لأخذ موضع أو موقف أو حال العبد المتشفَّع فيه، بل ويلزم أن يكون مستعداً لإعطاء كل ما عنده لإيفاء عجز العبد رفيقه.

ولكن لا يمكن أن تتم الشفاعة إلا إذا كان الإنسان قادراً أن يتقــدم بروح الشفيع، وأن يكون مستعداً لأخذ أو استعارة مؤهلاته، وإلا لا تتم الوساطة. فالعذراء، في الحقيقة، تمثِّل لنا أو تصوِّر لنا المؤهــل الأول أو نوعية المجال المحتم الذي فيه نتقابل مع الله. فالذين ينكرون دور العــذراء في الميلاد أو في الشفاعة، أو ينكرون دور الطهارة، إنما ينكرونه بعقولهم فقط، لأنه يستحيل إنكاره أو إلغاؤه عملياً. فإن الله لا يمكن أن يتجسد إلا في الطهارة، هذا بخصوص الميلاد؛ كذلك فإن الله لا يمكن أن يتراءى أو يعمل إلا في مجال الطهارة، هذا بخصوص الشفاعة. «طوبى للأنقيــاء القلب، لأنهم يعاينون الله» (مت ٥:٨).

إن أقل نجاسة حتى ولو كانت بالفكر العابر كفيلة أن تخفي وجه الله، لأن النجاسة ظلمة وهي من صنع الشيطان، لذلك يستحيل أن يــدخل الإنسان في مجال الله في الصلاة أو التأمل، وله في قلبــه أو ضــميره أو جسده في ذلك الوقت أقل ميل ناحية النجاسة.

هنا لا يمكن أن يبلغ الإنسان هذه الحالة إلا بالنية في الضمير بالصلاة الحارة والتمسك بالنعمة على أساس دم المسيح، وهكذا في الحال ينـــال هبة القداسة ونعمة الطهارة من الله كما بالعقل والفكر كذلك بالجسد.

التشفع يستلزم حضوراً شخصياً، العذراء تتراءى بطهرها، من أجلنـــا وفي دائرة حياتنا، أمام المسيح، فتفتح أمامنا مجالاً مساعداً لإلهـــاب روح الطهارة، وإيقاظ وعي القداسة فينا. و «أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء» (١كو ١٤: ٣٢).

مريم العذراء تُعتبَر خبرة بشرية ناجحة وصلت إلى عمق الاتصال بالله في طهارة فائقة لها بالكلمة، أخذت عن الله طهارة فائقة والله أخذ منها جسداً. والعذراء بهذا الوضع صارت نموذجاً حراً للاتحاد بالله، وتظـــل مؤهلات الشفيع الوحيدة هي أنه يعطي ما عنده.

مباركة هي العذراء، وطوبى لكل من يطوبها.

(٢)

صوم العذراء وعيدها

✧✧✧

صوم العذراء من الأصوام المحبوبة جداً لدى الشعب. ويكاد يُقال، من وجهة التاريخ الكنسي، إن الشعب هو الذي فرضه على الكنيسة لأنه حتى القرن الحادي عشر لم يكن ضمن الأصوام المفروضة بحكم القانون الكنسي، ولم يأتِ ذكره قط في أي كتاب ولا في أي مناسبة، كما إننا لا نجده في أي قانون من قوانين الصوم. فمثلاً لا نجده في قانون "الأصوام المفروضة" لأنبا خريستوذولوس البطريرك السادس والستين في عداد بطاركة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الذي تنيح عام ١٠٧٦م. كما لا نجده في قانون الأصوام لخليفته أنبا كيرلس الثاني (السابع والستين في عداد البطاركة) الذي تنيح سنة ١٠٩٠م. وذلك بحسب ما هو مدوَّن في كتابَيْ تاريخ البطاركة لأسقف فوه ولساويرس بن المقفع.

أما أول ذكر لصوم العذراء فباعتباره صوماً للعذارى، وجاء في كتاب الشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود، وجاء هكذا:

[صوم العذارى بمصر من أول مسرى إلى الحادي والعشرين منه. ويتلوه فصحهم ـــــ أي فصح العذارى ـــــ في الثاني والعشرين

منه. ومسرى يوافق تموز (يوليو) وآب (أغسطس).][٢]

والمعروف أن أبو المكارم مات سنة ١٢٠٩م. وهكذا بدأ ذكر صوم العذراء في مستهل القرن الثالث عشر باعتباره صوماً خاصاً بالعـــذارى، أي كسند للطهارة والتبتل. ولكن لم يمضِ على هذا التاريخ أكثر من ربع قرن حتى بدأ هذا الصوم المبارك يأخذ صورة أكثر قوة وشيوعاً بين العُبَّاد والمتنسكين عموماً، إذ يذكره العالم التقي الصفي بن العسال في كتابـــه: ''المجموع الصفوي'' ومختصره المدعو ''كفاية المبتدئين في علم القوانين''، جاعلاً هذا الصوم في الطبقة الرابعة للأصوام بعد الأصوام الكنسية ذات المناسبات اللاهوتية، فيقول:

[ومن الأصوام ما هو دون ذلك، في حفظ الأكثرين له، وهو صوم عيد السيدة. وأكثر ما يصومه **المتنسكون والراهبات**. وأوله أول مسرى، وعيد السيدة فِصْحه.][٣]

وهكذا لم ينتهِ القرن الثالث عشر حتى أصبح لصوم العذراء وعيـــدها مكانة كبيرة في حياة الشعب عامة، لا كسند للطهارة والتبتل فقط، بل كمعيار عام للتنسك والزهد الشديد وفرصة محبوبة للتوبة وتجديد الحياة ووفاء النذور، ينتظره الشعب على كافة مستوياته بترقب واشتياق كثير، جاعلين من العذراء مريم ليس فقط المثل الحي لحياة الطهارة والتبتل بـــل والشفيع المؤتمن لنيل القوة والنعمة من الله للسلوك في هذه الحياة.

والعجيب في هذا الصوم أن أيّاً من أفراد الشعب لا يحتاج فيه، بل ولا

---

[٢] مخطوط بمكتبة برلين **Fol 179 RV**.

[٣] المجموع الصفوي ٧:١٥ ـــــ كفاية الطالب ١٤.

ينتظر من الكنيسة أي توجيه أو أي تشجيع للتوفر على صومه، بل الكل يتبارى في النسك والتقشف والانقطاع عن الطعام برغبة واشتياق كبير دون أي تعليم أو أي تشويق، حتى إن الشعب يصبح فيه، وإذا بهم كلهم رهبان ومتنسكون. وهذا مما يبرز في الكنيسة القبطية صورة من أروع الصور الروحانية على إمكانية التزام الشعب بأعمق مناهج النسك والتقشف دون إلزام أو توجيه أو ترغيب!! حتى أنه يكاد يوحي لنا هذا الصوم العجيب بأن سلطان الروح إذا اتخذ طريقه داخل قلب الشعب من مدخل صحيح وعن حب واقتناع، لارتفع الوجدان والضمير فوق كل قانون وفرض وإلزام!

والعجيب أيضاً أن هذا الصوم، الذي ارتضت به الكنيسة أخيراً ووضعته في المرتبة الرابعة دون كافة الأصوام، يبلغ في حرارته وحبه والالتزام به على المستوى الجماعي والشعبي إلى الدرجة الأولى بلا منازع، وقد يبدو وكأن في ذلك سراً، ولكن سر ذلك الصوم هو في شفيعته، فالعذراء شفيعة مقتدرة، وهي وإن كانت شفيعة لكل من يلتجىء إليها لجوء الإيمان والرجاء والمحبة فهي على وجه خصوصي شفيعة لمن يلتجىء إليها في انسحاق الصوم ونذر العفة والنسك! فالصوم هنا كما يحسه الصائم عملياً فرصة لتلاقي الأرواح لتقديم أقدس المشاعر وأصدق عهود الوفاء والحب.

صوم العذراء قد ثبت بالفعل واليقين أنه مدخل إيماني لذوي الحاجات والأتعاب والأمراض لقبول ختم شفاعة يسري مفعوله بضمان حب المسيح لها ولنا.

وصوم العذراء مرتبط بعيدها، وللعذراء في الكنيسة القبطية أعياد خمسة: الأول لميلادها ويقع في أول بشنس، والثاني لذكرى دخولها الهيكل ويقع في ٣ كيهك، والثالث لنياحتها ويقع في ٢١ طوبة، والرابع

لذكرى ظهور جسدها ويقع في ١٦ مسرى، والخامس تذكار بناء أول كنيسة على اسمها في ٢١ بؤونة.

أما ما هو عيدها الذي نختتم به صومها المبارك والذي يقع في ١٦ مسرى؛ فيقول السنكسار تحت هذا اليوم وفي العنوان، إنه تذكار صعود جسد العذراء. ولكن يعود في نهاية الكلام ويقول إنه عيد ظهور جسدها.

والحقيقة إنه إذا كانت نياحتها تقع في طوبة، فيتحتم أن يكون صعود جسدها في طوبة أيضاً، لأن الجسد لم يبقَ في القبر. وهذا ما نلاحظه في تقاويم الكنائس الأخرى أن أعياد النياحة والصعود متقاربان أو متتاليان أو في نفس اليوم، فالروم واللاتين يعيِّدون النياحة والصعود معاً في ١٥ أغسطس، أما الكنيسة الأرمنية فجعلت صعود جسدها في أول يوم أحد يجيء بعد ١٥ أغسطس، والكنيسة الإثيوبية جعلت دفن الجسد في ٨ أغسطس وصعوده في ٩ أغسطس.

والملاحظ أن جميع الكنائس تعيِّد لصعود الجسد في شهر أغسطس (مسرى)، وهذا ما جعل السنكسار القبطي يميل لجعل تذكار صعودها في شهر أغسطس بالرغم من أن نياحتها في طوبة. أما التعييد **لظهور العذراء**، فتنفرد به الكنيسة القبطية دون جميع الكنائس، ولعل ذلك كان إلحاحاً مبكراً من الكنيسة لظهورها الذي أكملته أخيراً في كنيسة الزيتون!

وتاريخ تثبيت هذا العيد في الغرب يبدأ بصورة مؤكدة منذ القرن السادس الميلادي، حسب الرواية التي يسردها أُنيسيفوروس كاليستوس،[٤]

[٤] التاريخ الكنسي ١٧: ١٠٠: ٢٨.

حيث يقول إن الإمبراطور موريس هو الذي أصدر الفرمان بذلك.

أما المصدر الذي استقت منه الكنيسة خبر صعود جسدها إلى السماء، فهو الكتاب الذي كان متداولاً لدى جماعة الغنوسيين في القرن الثالث الميلادي الذي يقص خبر نياحتها وصعود جسدها إلى السماء، وهو من جملة كتب الأبوكريفا التي تحمل سيرة العذراء مريم والتي أخذت عنها الكنيسة كلها شرقاً وغرباً والذي لا يزال موجوداً حتى اليوم ضمن مجموعة: **Bibliotheca Patrum Maxima, Tom ii, p 212**.

وهو يحكي أن العذراء عاشت بعد قيامة الرب ٢١ سنة، ولكن التقليد الساري في الكنيسة القبطية يقول إنها عاشت ١٤ سنة فقط بعد القيامة.

ولكن كل الروايات تتفق معاً في خبر حضور الرب وقت نياحة العذراء واستلام روحها الطاهرة، حيث تظهر روحها في الصور التقليدية كطفل صغير مضيء كالنور بين يدي المخلِّص وهو واقف أمام الجسد المائت. كما تتفق الروايات أيضاً في خبر صعود الجسد إلى السماء حتى لا يرى فساداً. وقد بدأت الكنيسة تتداول هذه الرواية في السنين الأولى بتحفظ شديد ما بين قبول ورفض حتى القرن السادس. ولكن بسبب ظهور البدعة النسطورية تقبلت الكنيسة كل ما يخص تمجيد العذراء من التراث التقليدي المتوارَث، وقام كثير من المؤرخين يثبت أن رواية النياحة والصعود هي من وضع ميليتس الأرثوذكسي أسقف ساردس من القرن الثاني، وآخرون قالوا إنها من وضع يوحنا الرسول نفسه، وآخرون أثبتوا أنها مذكورة في الميامر التي وضعها القديس جيروم،[٥] وآخرون وجدوها

[٥] إلى بولا واستوخيوم عن الصعود.

في ميامر القديس أغسطينوس،[٦] كما وُجدت مذكورة في عظتين منسوبتين للقديس أثناسيوس.[٧]

وقد وُجد في تاريخ يوسابيوس القيصري إضافة تقول:

[إنه في السنة ٤٨ من الميلاد أُخذت العذراء مريم إلى السماء بحسب ما وجد مدوناً عن أشخاص شهدوا أن ذلك أُعلن لهم شخصياً].

وقد وُجد في أقوال يوحنا الدمشقي (سنة ٧٣٠م) خبر يشهد بصعود جسد العذراء إلى السماء منقولاً عن جوفينال أسقف أورشليم الذي أرسله للملكة بولخاريا يؤكد أن تقليد صعود جسد العذراء قديم جداً.[٨]

كما يعتبر غريغوريوس الذي من تور (عاش سنة ٥٩٠م) من الأشخاص الكنسيين المسؤولين عن تثبيت عقيدة صعود العذراء في الكنيسة الغربية عموماً، إذ تكلم عنها بتأكيد شاهداً أنها تقليد مسلَّم في الكنيسة، وذلك في كتابه عن: ''مجد سيرة الشهداء''.

ولكن إذا تجاوزنا هذه التحقيقات التاريخية التي يعوزها جميعاً الأصالة والبرهان وعدنا إلى الواقع الروحي، نجد أن صعود جسد العذراء إلى السماء أمر لا يحتاج إلى تحقيق أو برهان، فهو يأتي كبديهية أو لازمة لاهوتية بعد حقائق التجسد والقيامة والصعود، الأمور الثابتة التي حققها

---

[٦] نفس المرجع ص ١١٤٢ ـــــ طبعة ميني.

[٧] نفس المرجع ص ٣٩٣ و٤١٦ ـــــ طبعة البندكتيين، باريس.

[٨] يوحنا الدمشقي، ـــــ ، ص ـــ.

الرب بجسده الذي أخذه من العذراء؛ فالبطن التي حملت كلمة الله يستحيل أن يحتويها تراب الأرض.

وإن صعود جسد العذراء لهو مقدمة إيمانية مشجعة لنفوسنا ننتظر على هداها مجيء ذلك الذي سوف يحيي أجسادنا ويقيمها لحياة أفضل. فإن كان صوم العذراء النسكي يسند طهارتنا ويستدر شفاعتها عنا، فصعودها يقوِّي رجاءنا بما هو آتٍ.

(٣)

عيد صعود جسد السيدة العذراء مريم إلى السماء

✧✧✧

١ – من الأدب الكنسي التقليدي المختص بالعذراء (حسب الوثيقة اللاتينية الأولى)[٩]

[٩] هناك اثنتان وعشرون وثيقة وصلت إلينا: واحدة باللغة القبطية باللهجتين الصعيدية والبحيرية، وتسعة باللغة اليونانية واثنتا عشرة باللغة اللاتينية. وهي مجموعة واحدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام كل قسم يختص بناحية تاريخية من حياة العذراء. وتعتبر هذه الوثائق أصولاً للتقليد. وتؤكد الأدلة العلمية شيوع هذه القصص التقليدية في القرن الثاني الميلادي. وقد ذكر بعضها القديس يوستينوس الشهيد **ANF ii, 237**.

كما أشار إليها القديس إيرينيئوس في كتاباته. وانظر أيضاً رسائل القديس إغناطيوس الأنطاكي إلى أفسس ١٩ **(ANF ii, 57)**. كذلك وُجد في كتابات العلامة أوريجانوس ما يشير إلى هذه الوثائق (نهاية القرن الثاني أيضاً) **(ANF iii, 424, 452, 905)**. أما بعد ذلك، وفي حوالي القرن الرابع، فنجد الإشارات إلى هذه الوثائق التقليدية تأخذ صورة واضحة في المؤلفات الكنسية مثلما ورد في كتابات القديس أغسطينوس **NPNF, 1st Series, Vol IV, p 315f**، حينما كان يتكلم عن يواقيم والد مريم في رده على فاوستوس. وكذلك في كتابات القديس جيروم نجد إشارات عديدة إلى بعض هذه القصص. ونجد بعضها، على الأخص قصة ميلاد العذراء من يواقيم وحنة، يأخذ شهرة وذيوعاً عالمياً، وتستقر ضمن مجموعة الموسوعة التاريخية اللومباردية **Historia Lombardica** في أواخر القرن الثالث عشر فتصير ينبوعاً خصباً للشعر والفن المقدس.

حدث في الأيام التي كان المسيح يخدم فيها قبل أن يدخل آلامه، أن طلبت منذ العذراء أمه أن يسبق ويعرِّفها قبل انتقالها بثلاثة أيام بميعاد خروج نفسها من الجسد، وأن يتكرم باستلام روحها بنفسه مع الملائكة. فاستجاب سؤالها وقال لها: أيتها الأم الطاهرة، يا ملكة القديسين، هيكل الله الحي المطوَّبة أكثر من جميع النساء، كيف أتخلى عنكِ وأنتِ التي حملتِني في أحشائكِ وأطعمتني وتحملتِ الهروب إلى مصر من أجلي وقاسيتِ معي في تجاربي؟ كما كنتُ أعولكِ كذلك يكون دائماً، وملاكي يحرسك وسيظل دائماً يحرسك إلى حين الانتقال. وعندما **يأتي إليك جبرائيل بغصن نخيل علامة**[١٠]، اعلمي يقيناً أن وقت نياحك قد قرب وسوف آتي بنفسي مع ملائكة وقديسين وعذارى وتلاميذي لآخذ نفسك، أما جسدك فسوف يُحمل إلى السماء.

وقد تم بالفعل أن أتاها ملاك، وهي تصلي، قبل نياحتها بثلاثة أيام. وحضر جميع الرسل ما عدا توما الذي كان يُدعى ديديموس وأعلمتهم

وعدا هذه الوثائق الاثنتين والعشرين، توجد وثيقة أخرى باسم ''نياحة العذراء'' و''صعود العذراء'' لها أصول باللغات القبطية والسريانية والعربية. فالنسخة السريانية نشرها مع ترجمة لها باللغة الإنجليزية العالم رايت سنة ١٨٦٥م، والنسخة العربية وهي تشبه كثيراً النسخة السريانية نشرها وترجمها إلى الإنجليزية العالم إنجر سنة ١٨٥٤م، والنسخة القبطية وهي تختلف كثيراً عن النسختين العربية والسريانية نشرها وترجمها العالم الألماني زويجا. ويُظن أن هذه النسخ لها أصل يوناني لكنه مفقود. وقد احتفظ لنا التاريخ بمقالة من القرن السابع ليوحنا رئيس أساقفة تسالونيكي، على نياحة العذراء التي يُشتبه أن تكون ليوحنا الرسول نفسه. انظر: تشندورف، مقدمة في الأدب الأبوكريفي للعهد الجديد.

[١٠] كل الصور التقليدية للعذراء نرى فيها غصن نخيل إشارة إلى المزمور: «الصدِّيق كالنخلة يزهو» (مز ٩٢:١٢)، وتذكاراً لوعد الرب كما جاء في الأبوكريفا، وهناك دائماً ارتباط بين الفن المسيحي وكتب الأبوكريفا كرسم المغارة في أيقونة الميلاد.

أنها سترحل غد ذلك اليوم. فأمضوا الليل كله في الصلاة مسبِّحين الرب على الدوام.

وفي يوم الأحد في الساعة الثالثة من النهار، إذا بالروح القدس يحل في سحابة كالتي كانت تظللهم يوم التجلي، فامتلأ المكان من رائحة عطرة وكانت تُسمع تسابيح من جمهور الملائكة على توقيع نشيد الأنشاد (الوتر الأول...إلخ) وخاطبها الرب بقوله: «كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات» (نش ٢:٢). ولما تراءى لهم الرب، سقطوا على وجوههم لأنهم رأوه متجلياً كما كان على طور (أي جبل) طابور. ثم ارتفع وفي يديه روح العذراء مضيئة مع تسابيح ومزامير ونشيد الأنشاد. ولما أفاق التلاميذ من ذهولهم من فرط النور، قاموا وحملوا الجسد المقدس ونزلوا به من فوق جبل صهيون وانحدروا به نحو وادي يهوشافاط كقول الرب لهم.

وبعدما أوسدوا الجسد في القبر، وأغلقوه، أبرق فجأة حولهم نور من السماء فسقطوا على وجوههم.

ثم جاءت بعد ذلك الملائكة وأخذوا الجسد المقدس وصعدوا به إلى السماء دون أن يشعر بهم أحد. وفي هذه الأثناء قدم توما الرسول وصادف **الجسد** والملائكة صاعدين به على جبل الزيتون، فأخذ يستصرخ العذراء ويتوسل (إلى روحها) أن تُظهر نحوه مسرتها به ليفرح قلبه. وإذا بزنارها (منطقتها أي حزامها) الذي كان الجسد ملفوفاً به يسقط عليه من السماء، فالتقطه وقبَّله وسبَّح الله. وانحدر إلى التلاميذ، وإذا بطرس يبتدره بقوله: لولا شكُّك وعدم إيمانك لَمَا حُرمتَ هكذا من حضور نياحة أم المخلِّص، لأن الله لم يُسَرّ أن تكون بيننا في دفنها بسبب عدم إيمانك. فأجابهم توما: أطلب الصفح... ثم أخذهم ودخل إلى القبر وكان جديداً منقوراً في الصخر، ورفع الحجر فلم

يجدوا الجسد.

حينئذٍ ابتدأ توما يشرح لهم الخبر، كيف أُخذ بالروح أثناء خدمته ووجد نفسه على جبل الزيتون ورأى جسد العذراء الطاهرة مريم صاعداً إلى السماء، وكيف توسل إليها أن تمنحه بركة، فسقط عليه زنارها[11] الذي كان الجسد ملفوفاً به. وفي الحال أخرجه لهم وأراهم إياه. فلما فحصه التلاميذ وجدوه أنه هو هو الذي وضعوه بأنفسهم حول الجسد، فمجدوا الله.

٢ – المفهوم الروحي واللاهوتي لعيد صعود جسد العذراء

عيد صعود جسد العذراء القديسة مريم إلى السماء هو عيد وضعته الكنيسة لتكريم شخصية العذراء باعتبارها أُمَّ الجالس عن يمين الله الآب في الأعالي، فليس اختطافاً أن تجلِّسها الكنيسة اليوم على عرش القلوب لأنها صعدت لتكون عن يمين عرش ابنها، حسب تقليد الكنيسة كقول المزمور: «قامت الملكة عن يمين الملك» (مز ٤٥:٩ قبطي).

وأعياد السيدة العذراء، أيها الأحباء، أعياد تقليدية في الكنيسة، وحينما نقول ''تقليدية'' نقصد أنها غير منصوص عنها في الكتاب المقدس، ولكن حفظتها الكنيسة كميراث روحي عن آباء العصور الأولى.

والتقليد في المفهوم الروحي واللاهوتي لا يفيد مجرد عمل من الأعمال

[11] قصة الزنار عند السريان معروفة. وهو موجود عندهم حالياً في كنيسة حمص بسوريا.

القديمة في الكنيسة، أو عادة من العادات التي وضعها القدماء. ولكن التقليد يفيد، بالدرجة الأولى، خبرة روحية عاشها أناس روحيون أتقياء مشهود لهم، ثم حافظ عليها أبناؤهم والأجيال الصاعدة نتيجة اقتناع واختبار أيضاً. لذلك، فالكنيسة في تمسكها الشديد بالتقليد إنما تحتفظ للأجيال اللاحقة بخبرات روحية من الأجيال السابقة، والخبرة الروحية عند القديسين تحمل دائماً في داخلها فكراً وسلوكاً ورؤية روحية.

فالتقليد يُخصب حياتنا بخبرات روحية نستطيع أن نستشف منها لأنفسنا، بالإيمان، نفس الفكر ونفس السلوك والرؤية التي عاشها القديسون. ولذلك تؤكد الكنيسة في تقديمها لهذه الأعياد بصورة رسمية، أنها تريد وتُلحُّ أن يكون لنا هذه الخبرات لنرتفع إلى مستوى الفكر الروحي الواحد مع الآباء الأوائل، ومستوى العلاقة الحية مع أرواح القديسين المكمَّلين في المجد.

لأن كل تكريم تقدمه الكنيسة لأرواح القديسين الذين انتقلوا، سواء بالتسبيح أو التعييد، هو في الحقيقة توطيد علاقات حية عميقة، كائنة بالفعل بين الأعضاء الواحدة للجسد الواحد، لحساب الرأس الواحد، الذي هو الرب. لذلك فقيام هذه العلاقات والارتباطات على حساب إيماننا وعلاقتنا وارتباطنا بالرب كأنها تضعف خلاصنا، هذا افتراء، لأن أي عمل يشدُّ أعضاء الجسد الواحد معاً إنما يزيد من كفاءة خلاص الأعضاء وخدمتهم جميعاً لحساب الرأس.

لذلك فكل حب، وكل كرامة، وكل تقديس نقدمه لأشخاص القديسين الذين سبقونا، إنما هو يبهجهم، ويبهج قلب المسيح، ويبهجنا، ويمنحنا ثقةً ورجاءً أوفر بالخلاص العتيد أن نكمله معهم حينما نشخص دائماً إلى نفس النصيب الذي صاروا إليه.

هؤلاء القديسون المفديون الذين خلصوا وكملوا، وعلى رأسهم أُم الفادي والمخلِّص، قد علمنا من الرب أنهم دخلوا إلى فرح سيدهم: «نعِمّا أيها العبد الصالح والأمين، كنتَ أميناً في القليل فأقيمك على الكثير، أُدخل إلى **فرح سيدك**» (مت ٢١:٢٥)، **وفرح المسيح** هو خلاصنا.

حتى الملائكة تفرح بتوبة الخطاة. فإن كانوا هم يفرحون بفرحنا، فكيف لا نفرح لفرحهم ونحن أعضاء معهم في نفس الجسد، بل كيف لا نشترك في هذا الفرح عينه ونعيِّد له بالتهليل؟

أليس صعود جسد العذراء إلى السماء هو تكريم غير مباشر لشخص الرب الذي أخذ منه لحمه وعظامه؟

ثم أليس صعود جسد العذراء إلى السماء، في محفل ملائكة، هو تكريم مباشر للبشرية كلها التي صار لها مثل هذا الاستحقاق ـــــ برحمة الله السابقة ونعمته التي سكنت العذراء ـــــ بأن يكون جسدها وهو مثيل أجسادنا، له هذه الكرامة والمجد كسبق عربون وبرهان لقيامة عتيدة أن تجوزها أجسادنا جميعاً، حينما تنال تغييراً مماثلاً برحمة الله ونعمته، لتكون على صورة جسد تواضع الرب القائم من الأموات؟

إن تعييد الكنيسة لصعود جسد العذراء هو في حقيقته وجوهره ليس مجرد تكريم وتعييد للفرح والبهجة وحسب، بل يحمل معياراً لإيمان عميق بقيامة الأجساد، وبتكريم جسد الإنسان في صورته المُفتداة العامة العتيدة أن تكون حسب قول القديس بولس الرسول: «إن المسيح أيضاً رأس الكنيسة، وهو **مخلِّص الجسد**» (أف ٢٣:٥).

وكأنما الكنيسة اليوم بتعييدها لصعود جسد العذراء تقول لكل مؤمن من أولادها إنه هكذا سيخلص الجسد، وهكذا سيضمه الرب إليه ويرفعه

من وهدة الهلاك ومن ربقة الفساد. وهكذا يُعوضنا الرب في يوم الافتقاد عوض أنين ودموع الأمراض والأوجاع وانسحاق الجسد، وعوض مرارة التوبة وأحزانها عن خطايا وهفوات، وعوض جروح النفس الدامية بسبب عجز الجسد عن تكميل واجبات الكمال المسيحي بالتقديس الكلي، سيغيره الرب إلى شبه جسده بقوة تواضع صليبه، ويرفعه إليه بروح نعمته وبقوة قيامته ليشترك في خيرات الروح.

إذاً، فعيد صعود جسد العذراء يحفظ لنا ليس تقليداً ميتاً، ولا تاريخاً قديماً، ولا عادة رسمها الأولون؛ بل يحتجز لنا حقيقة لاهوتية ومعياراً إيمانياً وقوة ورجاءً قادراً أن يتجاوز أنيننا وأحزاننا وتنهداتنا الزمنية بسبب عجز وضعفات الجسد، لكي يجعلنا نعيش بهجة قادمة حتماً، ورؤية صادقة، وشركة في فرح كبير هو فرح العذراء حينما دخلت إلى فرح سيدها وابنها، بنصيبها الأوفر، هذا الذي لم تَنَله وحدها لتفرح به لذاتها وحسب؛ بل لكي تشترك معها بقية الأعضاء أي الكنيسة كلها.

ألم يقل القديس بولس الرسول لأهل كورنثوس: «**إن فرحي هو فرح جميعكم**» (٢كو ٢: ٣)؟ فإن كان فرح بولس فرحنا، فكم بالحري تكون العذراء؟ أم أن الألم نشترك فيه جميعاً في الحاضر ولكن الفرح يكون لصاحبه فقط؟ هل يمكن أن الجسد الواحد تستجيب أعضاؤه لألم بعضها ولا تستجيب لفرح بعضها؟ ألم يقل القديس بولس بتأكيد: «تهتم الأعضاء اهتماماً واحداً بعضُها لبعض. فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه. وإن كان عضو واحد يُكرَّم فجميع الأعضاء **تفرح معه**. وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً» (١كو ١٢: ٢٥-٢٧).

فالآن يتبرهن بكل تأكيد أن فرح القديسين في السماء فرحنا، وكرامتهم وإكرامهم إنْ في السماء أو في الأرض هو أيضاً لعزائنا

وفرحنا، لأننا معهم جسد واحد.

فاليوم إن كانت الكنيسة تعيِّد لأن السماء قد قبلت جسد العذراء كرامة للمسيح الذي حملته، فلنفرح جميعاً فرحاً يؤول إلى ثقة لأننا ننتظر نفس النصيب، إذ صرنا نحن أيضاً أعضاء في جسده ولحماً من لحمه وعظماً من عظامه، كما إننا نستمد من فرح العذراء وهي قائمة عن يمين الرب قوة وعزاءً وصبراً وجهاداً حسناً أكثر مما نستمده من جميع القديسين، لأنها أم لهذا «الجسد».

فإن كنا قادرين حقاً بقوة إيماننا بسر الكنيسة كجسد واحد، وبقوة إيماننا بأن اهتمام الأعضاء في هذا الجسد السري هو اهتمام واحد ـــ حسب قول الوحي الإلهي على فم بولس الرسول (١كو ١٢:٢٥) ـــ إذاً فنحن قادرون أن نستمد قوة دائمة من فرح القديسين ونستمد لأنفسنا معونة من تكريم الله لهم؛ ثم أليست هذه هي الشفاعة؟

إن العذراء والقديسين حينما يتشفعون عن ضعفنا، لا تكون هذه الشفاعة إلا هذه الصلة السرية القائمة حقاً وفعلاً بيننا وبينهم بحكم الجسد الواحد، وهم فيه أكثر حركة وحرية منا. إذ حتماً يستحيل أن يكونوا هم في قوة ونكون نحن في ضعف دون أن تسري قوتهم إلى ضعفنا، بحكم قدرتهم هم على ذلك، وبحسب إيماننا وقبولنا نحن إن كنا حقاً جسداً واحداً. كما يستحيل أن يكونوا هم في فرح الخلاص الكامل ونحن نكون في حزن عجزنا عن تكميل هذا الخلاص دون أن يسري فرحهم إلينا، فيعزي قلوبنا ويشددنا في جهادنا لتكميل خلاصنا، كما كان كذلك يكون، من جيل إلى جيل، إلى أن تكمل الأجيال حسب خطة الخلاص العظمى بنفس الروح الذي بدأت به.

وهكذا يحتفظ لنا التقليد اليوم بعيد من أحب الأعياد إلى الناس عامة.

وبهذا العيد أيضاً ينجح التقليد في أن يثبت صحة نفسه وأهمية وجـــوده، إذ ينقل إلى المجتمع الكنسي على كافة مستوياته وطبقاته خبرة روحيـــة مـــن منابعها الأولى، عميقة غاية العمق، سهلة غاية السهولة، في إطار من البهجة والفرح والرجاء لم تَقْدُم و لم تَشِخْ، مع أنها تختص بأعقد مشكلة من مشاكل اللاهوت وهي مصير الجسد بعد الموت، ونصيبه من الخلاص العام.

فلتفرح الكنيسة اليوم بتهليل القلوب المؤمنة، كما فرحت الســـماء بدخول جسد العذراء بتهليل الملائكة...

وليكن لنا في هذا العيد خبرة روحية نعيشها بيقين خلاص الجســـد، عالمين أنه كما سكنه الروح القدس وطهَّره وجعله هيكلاً لله، سيغيره الله حتماً حسب الوعد ويلبسه الشكل السمائي لكي يليق أن يكـــون مـــع الرب كل حين.

٣ – صعود جسد العذراء مريم وتجلي الأجساد

اليوم نحن بصدد تكريم جسد العذراء، فصعود جسدها إلى السماء هو عمل تكريمي فائق من قبل السماء. تكريم أجســـاد القديســـين عقيـــدة أرثوذكسية، هذه العقيدة لا تنبع من فراغ.

موسى، بعد مقابلة طويلة مع الله استلم فيها الوصايا والنـــاموس، أخـــذ وجهه يلمع بصورة لم يحتملها شعب إسرائيل، لأن النور الذي كان يعكسه وجه موسى كان نوراً إلهياً، والنور الإلهي يعبِّر عن حضرة إلهية، فالله كـــان

يُرى في وجه موسى، لذلك اعتفى الشعب العاصي من رؤية وجه موسى لأن الخطية والله لا يمكن أن يتواجها. فلبس موسى برقعاً، اعتبره بولس الرسول تعبيراً عن عمى بصيرة هذا الشعب (٢كو ٣:١٣و١٤).

ثم عاد بولس الرسول يقول إن كانت خدمة الناموس الذي جلب الدينونة والموت أنشأت هكذا مجداً منظوراً للجسد ولمعاناً وإشراقاً لوجه الإنسان يمكن أن يُرى بالعين البشرية؛ فكم، بالأولى أو بالأحرى، تنشىء خدمة البر من مجد؟؟

والآن، وعلى هذا الأساس، نقول فيما يختص بالعذراء، وجسد العذراء ووجه العذراء:

إن كان موسى، عند استلامه مجرد كلمات مكتوبة بأصبع الله، صار وجهه يلمع تعبيراً عن المجد الذي أصاب الجسد؛ فكم يكون المجد الذي يمكن أن يصيب جسد العذراء عندما تقبلت في أحشائها كلمة الله نفسه، ابن الله بشخصه متخذاً من جسدها جسداً له بعد إعداد بواسطة الروح القدس وتظليل كلي بقوة الله من داخل ومن خارج. أيَّ مجد، إذن، أصاب جسد البتول؟ أو كما يقول بولس الرسول إن كانت خدمة الدينونة التي استلمها موسى بالوصايا والناموس أنشأت فيه مجداً نضح على جسده البشري نوراً إلهياً دام معه، فكم تنشىء بالحري خدمة البر التي اؤتمنت عليها العذراء بحلول النور الحقيقي في أحشائها وقبوله جسداً من جسدها؟

كلنا نعلم كيف أمات الله موسى ودفنه بنفسه في جبل «نبو» في رأس «الفسجة» بعيداً عن أعين الشعب خوفاً من انحراف قد يصيب الشعب فيقوموا بعبادة جسده، لأنه يبدو أن النور ظل يشع منه حتى بعد موته، لذلك قيل عنه في سفر التثنية: «ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» (تث ٣٤:٦). ثم نعود ونقرأ شيئاً في رسالة يهوذا عن جسد موسى، يكشف

عن أهمية خاصة لجسد موسى، أن ميخائيل رئيس الملائكة خاصم إبليس محاجاً عن جسد موسى وقال له: «لينتهرك الرب» (يه ٩)!

ويبدو من هذا أن رئيس الملائكة ميخائيل كان منوطاً به حراسة الجسد أو الصعود به إلى السماء. وحاول إبليس أن يسترده أو يكشف عن مكانه لتضليل الشعب. فوقعت معركة بينهما استنجد فيها رئيس الملائكة بالرب باعتباره رئيس جند السماء.

فإن كان قد صار اهتمام الله هكذا أن يقوم بدفن موسى بنفسه ثم تعيين رئيس الملائكة ميخائيل لحراسة الجسد أو ربما الصعود به إلى السماء ـــــ حسب تقليد اليهود ـــــ وكل هذا كان بسبب أن جسد موسى نضح عليه مجد الله وانعكس عليه نور وجهه بسبب تواجده مع الله أربعين يوماً وقبوله من يديه وصايا مكتوبة، إذن، فيكون تكريم الأجساد في العقيدة الأرثوذكسية لا ينبع من فراغ، وبالتالي كم يكون اهتمام الله والمسيح نفسه بجسد العذراء بعد نياحتها الذي نال حلولاً دائماً للروح القدس وملء النعمة وتظليلاً خاصاً بقوة العلي ثم حلول المسيح القدوس كلمة الله تسعة أشهر في أحشائها؟

صحيح إنه لم يبلغنا أن جسد العذراء كان يلمع بنور سمائي، ولكننا نعلم يقيناً أن هذا كان تمادياً أو امتداداً للإخلاء الذي جازه المسيح ليخفي مجد لاهوته، لأن المسيح نفسه في كل أيام حياته لم يلمع جسده إلا مرة واحدة ولفترة قصيرة يوم التجلي؛ مع أنه هو النور الحقيقي نور العالم كله الذي ينير دائماً أبداً لكل إنسان!

واضح، إذن، أن هناك تدبيراً إلهياً وخطة وتصميماً لإخفاء كل مجد المسيح، وبالتالي العذراء، حتى لا يخرج الإيمان بالمسيح عن حدوده المرسومة، وحتى لا يفقد الصليب عاره، ولا تدخل كرامة العذراء في

حدود عبادة أو تكريم يكون خاصاً بالله فقط.

إن نياحة العذراء كانت كنياحة موسى، احتاجت أن تتم في خفاء وإخفاء، خصوصاً وأن في زمن نياحتها كان الإنجيل قد بلغ أوج استعلانه حيث عُرف المسيح أنه هو ابن الله الإله الحقيقي المولود من العذراء مريم. لذلك لا نسمع عن نياحة العذراء في الإنجيل أو في الرسائل، وبالتالي ظل صعود جسدها يُتداول بالتعليم السري فقط في القرون الثلاثة الأولى، حتى لا تتركز عليها أضواء أكثر من اللازم، فتنحرف العبادة لله عن مسارها.

وإن كان جسد موسى لأنه لمع وجهه بنور الله احتاج من الله أن يدفنه بنفسه ويُنيط بحراسته رئيس الملائكة ميخائيل، فلا نتعجب أبداً حينما نسمع أن المسيح جاء بنفسه وقت نياحة العذراء واستقبل روحها الطاهرة وصعد بها إلى السماء، أما الجسد فبلا شك أُحيط بحراسة خاصة من رئيس الملائكة ميخائيل إلى أن رُفع إلى السماء في الوقت المحدد.

وهكذا، فإن جسد العذراء الذي كان موضع عناية الآب السمائي منذ لحظة البشارة وقبول الحمل الإلهي لم يزل مكرماً حتى رفعه الله بكرامة ملائكية.

أما صعود جسد العذراء فتكريمنا لهذا الصعود هو جزء لا يتجزأ من إيماننا بالأخرويات ـــ أي حياة الدهر الآتي ـــ لأنه معروف أن قيامة الأجساد من صميم عمل المسيح في الدهر الآتي، وإن كان صعود جسد العذراء ليس في حقيقته فعل قيامة، إلا أنه حالة تجلي، ظهر فيها الجسد محمولاً على أيدي قوات ملائكية تمهيداً لقيامة تمت أو ستتم هناك.

العهد الجديد مليء بحالات تجلي للجسد، المسيح بدأ هذا العمل الأخروي في نفسه، في جسده الذي أخذه منا، وذلك على جبل التجلي مع

بطرس ويوحنا ويعقوب، إذ جعله يضيء أمامهم بلمعان أكثر من الشمس، كباكورة ونموذج لما ستصير عليه أجسادنا حينما يكمل فداؤها؛ ومن ذلك الحين والبشرية كلها بل والخليقة تئنُّ وتتمخض معاً تنتظر التبني فداء أجسادنا. الخليقة كلها، وليس أجسادنا فقط، مدعوة للتجلي. ثوب المسيح أضاء ببياض ناصع أكثر من الثلج. الإشارة هنا واضحة أن المسيح نور العالم والخليقة، فالخليقة وكل المخلوقات ستأخذ كيانها الجديد من المسيح الآتي.

تكريم الأجساد القديسة والمضيئة هو عمل أُخروي، هو امتداد ليوم التجلي عبر الدهر الحاضر، هو حياة بالإيمان لحياة الدهر الآتي، المسيح منذ يوم التجلي وهو لا يكف عن أن يسكب نوره على أجساد ووجوه قديسيه. برية شيهيت تشهد بذلك وقد نالها النصيب الأوفر في تقبُّل النور السمائي:

القديس العظيم أنبا مقار شهد له سبعة آباء عظام أنهم رأوه مضيئاً داخل قلايته في ظلام الليل.

الأب القديس شيشوي ساعة نياحته، وكل الآباء جالسون حوله، رأوا وجهه يشع منه نور كالشمس، وظل هذا النور يتزايد حتى لحظة خروج الروح، فصار النور يخطف العين كالبرق وامتلأت القلاية من رائحة البخور!

الأب بامو الذي ينطقونه «بموا»، قيل عنه إن الله مجَّده إلى درجة أنه كان يصعب أن يتطلع أحد إلى وجهه بسبب المجد الذي كان يشع منه، فكان يبدو كملك على عرشه.

أرسانيوس القديس دخل عليه تلاميذه فجأة وهو يصلي فوجدوه كله كالنار.

القديس يوسف الكبير رآه إخوته وهو يصلي رافعاً يديه وإذا بأصابعه كعشر شعلات من النار.

ونحن لا نستطيع أن نرى في هذه العينات المضيئة من الوجوه والأجساد إلا امتداداً حقيقياً لتجلي المسيح عبر يوم الخمسين بحلول الروح القدس كألسنة نارية مستقرة على الأجساد تهيئُها للتجلي والقيامة المزمعة أن تكون.

إن تكريم العقيدة الأرثوذكسية لأجساد القديسين هو في الحقيقة امتداد لفرحة بطرس الرسول بنور المسيح المشعَّ واندفاعه الإيماني: «يا رب، جيد أن نكون ههنا» (مت ١٧:٤).

الرب المتجلي حاضر في قديسيه يشع بنوره وبروحه القدوس في أجسادهم ووجوههم. التقديس يتجاوز الروح والنفس ويصيب الجسد ويملأه أحياناً. الجسد وهو موجود في العالم أصبح محسوباً أنه ليس من هذا العالم، يقتات من خبز الجسد وخبز السماء معاً، يستنير بنور هذا الدهر وبنور السماء معاً!! ثم أليس هذا استجابة لدعوة الرسول: «مجِّدوا الله في أجسادكم» (١كو ٦:٢٠)؟

□

إن تعييدنا اليوم لجسد العذراء الصاعد إلى السماء هو بالحقيقة تمجيد للرب الذي لا يزال يتمجد كل يوم في قديسيه.